

دلائل الإعجاز

فصل في تحليل بعض الشواهد على اللفظ والمعنى .

واعلم أنه وإن كانت الصورة في الذي أعدنا وأبدأنا فيه من أن لا معنى للنظم غير توخّي معاني النحو فيما بين الكلم قد بلغت في الوضوح والظهور والانكشاف إلى أقصى الغاية وإلى أن تكون الزيادة عليه كالتكليف لمّا لا يُحتاجُ إليه فإنّ النفس تنازعُ إلى تتّبع كلّ ضربٍ من الشّئ به يرى أنه يعرضُ للمُسلم نفسه عند اعتراض الشكّ . وإنّما لنرى أنّ في الناس من إذا رأى أنَّهُ يجري في القياس وضرب المثل أن تشبّه الكلم في ضمّ بعضها إلى بعض بضمّ غزل الإبريسم بعضه إلى بعض ورأى أن الذي ينسجُ الديباج ويعملُ النقش والوشّي لا يصنعُ بالإبريسم الذي ينسجُ منه شيئاً غير أن يضمّ بعضه إلى بعض ويتخيّر للأصباغ المختلفة المواقع التي يعلم أنه إذا أوقعها فيها حدث له في نسجه ما يريد من النقش والصورة جرى في ظنّه أن حال الكلم في ضمّ بعضها إلى بعض وفي تخيّر المواقع لها حالّ خيوط الإبريسم سواء رأيت كلامه كلام من لا يعلم أنه لا يكون الضمّ فيها ضمّاً ولا الموقعُ موقعاً حتى يكون قد توخّي فيها معاني النحو وأنك إن عمدت إلى ألفاظٍ فجعلت تتّبع بعضها بعضاً من غير أن تتوخّي فيها معاني النحو لم تكن صنعت شيئاً تُدعى به مؤلفاً وتشبّهه معه بمن عمّل نسجاً أو صنّج على الجملة صنيعاً ولم يتصوّر أن تكون قد تخيرت لها المواقع .

وفسادُ هذا وشبيهه من الظنّ وإن كان معلوماً ظاهراً فإنّ هاهنا استدلالاً لطيفاً تكثرت بسببه الفائدة وهو أنه يتصوّر أن يعمدّ عامدٌ إلى نظم كلام بعينه فيزيلاه عن الصورة التي أرادها الناظم له ويفسدها عليه من غير أن يحوّل منه لفظاً عن موضعه أو يبدله بغيره أو يغير شيئاً من ظاهر أمره على حال . مثال ذلك أنك إن قدّرت في بيت أبي تمام - الطويل - :